وإذا عضّك الأسى ، فالقوافى عنـد جاماتها شرابُ التأسّى

« ٠ »

وإذا ما أردتَ نظمَ القوافى فليكنْ فى المروج والأزهارِ
إنها — لو عقلتَ — أطهرُ روحاً من مِلاحٍ ، غرامُها كالقمارِ
وقلْ الشعرَ فى جمال الأماسى وترنم بحسنِ شمس النهارِ
حَسَنٌ كلُّ ما على الأرضِ من زهرٍ ومن أنهرٍ ومن أطيارِ

« ٠ »

ولماذا الأنينُ ؟ حطمتَ نفسكْ وعلامَ النحيبُ والعيشُ زَهْرُ ؟
أتعدُّ الحياةَ خلواً من الخيرِ ، وفى كلِّ ما ترى العينُ خَيْرُ
لا تُحقِّرْ مستصغراً وضعيفاً ربما منه قد يُصيبك بِرُّ
رُبَّ كلبٍ أطعمتَه ، يمنع الضُرَّ إذا ما أصاب بيتَك ضُرُّ

« ٠ »

وعَزاءُ النفوس أن تُرسلَ الشـ ـعرَ ، إلى بارىء الدُّنا قُربانا
يَغمر الروحَ عنـد نجواه نورٌ يُفعم القلبَ رحمةً وحَنانا
ويَشيع الهـدوءَ فى كلِّ فجٍّ وتُغنِّى قيثارتى الإيمانا
تَنشُدُ الخالدَ الجلالةِ والحُسـ ـنَ ، فمِنْ حُسْنِه قَبَسْتُ البيانَا

مختار الوكيل

حافظ كما عرفته

حافظ — ومن أسماه فقد كنّاه — يظلمه من ينظر اليه شاعراً فقط ولم ينظر اليه « رجلا » كاملَ الرجولة . يعلو عن قشور الناثر اذا ما ذكر الأدب بشعره الفحل فى الشعر ونثره الفحل فى النثر ، وبقوة بيانه وبلاغة لسانه وبعذوبة حديثه إذا حدث وسعة ذاكرته اذا روى كأنما تلك الذاكرة الواسعة دواوين من الشعر ومؤلفات

جمة من روائع البلاغة والحكمة ومعجم عربى لا نقصان فيه ولا أخطاء .

أما اذا ذكر صفاء الذهن ورقة الخلق وبسطة الكف والسماحة وصدق الود والوفاء وسذاجة الحلم والقناعة والوفاء وكل ما عدّ العرب فى شعرهم وحكمهم وبلاغتهم من الفضائل فان حافظاً — رحمه الله — كان الأول فيه والأخير أو بعد الأخير فى ما يذم ويستنكر.

أما وطنيته الصادقة فلا يعادلها الا دينه المحمدى المتين . فلك من حافظ ما شئت الا أن تنال من هاتين الخلتين دينه ووطنيته ، ولك أن تحيله عما شئت لما طُبع عليه من سماحة الخلق وحسن الطوية الاعن هاتين العقيدتين اللتين تقيد بهما ، وقد طبع على ألا يتقيد بشىء حتى التقاليد والنقل ومتابعة الناس بعضهم لبعض فى ما يجمعون عليه اما بعد البحث والتروى واما بالتصديق والمتابعة بلا بحث ولا تدقيق . فالناس جميعاً معجبون بحضارة أوروبا وتقاليد الاوروبيين، أما حافظ فانه طاف مدن أوروبا فلما عاد منها عاد ساخطاً على تلك المدن والتقاليد « التى تجعل الناس سجناء وتحرمهم الحرية باسم الحرية » فى ما يسمونه أوطانها » .

هكذا كان يقول لنا حافظ الذى كان يكره التقيد فى ما تواطأ الناس على التقيد به سواء أكان فى مآكلهم أم مسكنهم أم أفراحهم أم أحزانهم أم مجالستهم أم مسايرتهم أم معاملتهم ومع ذلك كان الشاعر الفحل المقيد بالقافية والروىّ وكان الكاتب البليغ الفذ المقيد بالسجع والعبارات الموجزة كأنها فى أوزانها قطع من الموسيقى بمقاطعها ومصارعها .

حافظ يظلمه من ينظر اليه من ناحية واحدة ولم ينظر اليه رجلاً بارزاً كل البروز من كل ناحية من نواحى نفسه وخلقه ، سواء اتفق ذلك مع خلقنا ونفسيتنا أم لم يتفق وسواء أكان مما ألفنا مدحه لانطباعنا عليه أم لم نألفه ، وسواء اتفق الناس على عدّه حسناً مواتياً ام لم يتفقوا ، فحافظ كان شخصية بارزة وأول الادلة على بروز شخصيته انك اذا التقيت به مرة واحدة كانت هذه اللقيا الواحدة كافية لأن تطبع فى ذهنك صورة جسمه القوىّ العضل الطويل العريض المتناسق المتلائم الاعضاء ورقة صوته وغنته وحركة يديه الفصيحة وتهدّل جسمه اذا مشى على حركة يدين كمجذف السفينة وارسال عباراته فى التبسط أو فى الجواب كأنما كل نبرة توكيد جازم قاطع لا يقبل جدلاً ولا حواراً . كذلك هبّات الحكمة فى ذهنه

يجرى على لسانه وكأنها قطعة من الوحى بعبارة وجيزة ولفظ جزل تنفذ كالسهم المطلق الرنان فتقفل باب الحوار والجدل وتكون الحجة الدامغة والبرهان القاطع .

حافظ شاعر ، والشعر قطعة من الموسيقى أو هو هى ، والشرقيون موسيقيون بطباعهم ومزاجهم يستهويهم اللحن والنغم ،لذلك غلبت الشاعرية فى حافظ ووصفه وصفاته مع انى لا أجد مفاضلة بين شعره المنتقى ونثره المنمق المتين البليغ العبارة ففيمَ كانت شاعرية حافظ غالبة على نثره اذا نحن لم نضع فى احدى كفتى الميزان الى جانب الشعر او النثر عاطفة القارىء العربى ونفسيته ؟

أما الخيال وأما التخيل فى شعر حافظ فقد يكون أقل منه فى شعر سواه من فحول الشعراء ، وأما الحكمة وأما الديباجة وأما الحقيقة والواقع فهى فى شعر حافظ أقوى منها وأمتن وأصدق من شعر كبار الشعراء ، فهو بشعره يتحدث الى النفوس بقوة الحجة حتى تخال البيت اذا تلاه حافظ يدوى كالقذيفة وينفذ كالسهم ، فاما أن يخلق فى نفس السامع عقيدة واما ان يهدم ايماناً ، وهو فى الحالتين يتملك العقل ويخلب اللب ويتولد عنه الاعجاب والاقناع . وايّ نفس لا تستثار بمثل قوله وهو يصف هلال غرة السنة وقد أطلّ على الالوان . . . ؟ واي نفس شموس تنفلت من قوله وهو يرثى أحب الناس اليه الشيخ محمد عبده وسلامه على الاسلام بعد محمد» ؟ وأية عقيدة لا تتزعزع وحافظ يقول فى تعيين رجل الأمة سعد زغلول وزيراً للمعارف « فما دام فى قصر الدوبارة رئتُه — فسعد ودنلوب لعمرك واحد » فهل هناك خيال فتان ساحر أم هناك حقائق رائعة ليست انغم كساء من اللفظ الجزل الموسيقى ؟ ألم يقض حافظ ببيت من شعره على تلك الحملة الهوجاء التى أثيرت على السوريين من أجل خطبة احدى الصحف بقوله عن الأمة السورية « فصافحوها نصافح نفسها العرب » ؟ ان الذين عاشوا تلك الحقبة يذكرون ان هذا الشعر من نظم حافظ كان كافياً لمحو مجلدات من أقوال الصحف ومجلدات من أقوال الخطباء فيمن نعتوهم يومئذ بالدخلاء . . . .

كان حافظ كثير العناية بشعره ونثره يصقله ثم يصقله ثم يصقله ، حتى إذا ما أتم صقله ووثق بانه صار صورة صادقة لما يريد تصويره تغنى به وردّده فاذا أطرب واذا هو طرب لتلاوته عرضه على نخبة من الادباء الذين يختارهم لنقده ، فلا يستكبر ولا يعاند بل يباحث فاذا هو اعتقد بأن الصواب ما قاله ناقده لا يعزّ عليه هدم ما بنى

وتشييد سواه ، أو نثر ما نظم ونظم غيره. وأول مختاريه كان المرحوم اسماعيل باشا صبرى وثانيهم خليل مطران الذى كان يقدمه على سواه ويخلص له فى السر والعلانية وينزهه عن الغيرة والمزاحمة ويعتقد أنه اذا نظم « حلق بخياله الى جوّ عال يكاد لا يلحق بنفسه فيه » فحافظ على متانة نظمه ونثره وعلى سعة معرفته بلغته وعلى سعة روايته التى لا يلحق به فيها لاحق كان أقل الشعراء والكتاب استئثاراً برأيه وأكثرهم تساؤلا وسؤالا واستفهاماً ، والأثرة والانانية بالادب أول دليل الفقر بالبضاعة والجهل بالصناعة.

اذا لم يكن حافظ ممن ارتدوا فضيلة ضبط النفس فكان يقول للأعور يا أعور بلا محاسنة ولا مصانعة فانه كان شديد العناية بالانتقاد فانظر اليه وهو ينتقى الفاظه للنظم وعباراته للنثر تجده فيها الصائغ الذى يقلّب جواهره ، وانظر اليه وهو ينتقى جلاّسه وعشراءه تجد الحصيف الذى يبحث عن اللطافة والذكاء والانانية فلو أنه خيّر بين معاشرة أكابر العالم ومعاشرة الشيخ عبد العزيز البشرى ومحمد البابلى لما تردد فى نبذ الاكابر واختيار هذين العشيرين وأمثالهما ليروّح عن نفسه ما يكنه وليجد فى هذه النكتة مظهر الذكاء والفطانة واللطف ، واذا ثارت نفسه لأمر استحال عليه أن يضبط جماحها ليجامل أو يصانع .

واذا هو لم يوهب حب النظام والأناقة حتى شعره ونثره كان يكتبه على نتف من الاوراق تذوب بين أصابعه ، فأنه أوتى قوة الذاكرة حتى يستطيع أن ينشد :

علمى معى حيثما يممت يتبعنى صدرى وعاء له ، لا بطن صندوق

إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

فليس اذن من العجيب ألاّ يجدوا شعر حافظ بين أوراقه وليس من العجب ألاّ يجدوا بين مخلفات حافظ ورقاً فكل ما نظمه حافظ كان مطبوعاً فى ذهنه ، وكل ما حفظه حافظ كان مصوناً فى ذاكرته ، والمحفوظ من نظمه هو القليل النادر كالقصائد التى أملاها على صديقه محمد ابراهيم هلال فطبعها فى مجلدين وكالقصائد التى نشرتها الصحف. وأما مانظمه ولم ينشر — لأنّ نشره غير موموق على بلاغته — فكثير وروايته قليلون لأنه كان يكتفى أن يرضى نفسه بنظم ماهو فيض منها وعفو السجية دون أى اهتمام بحفظه أو تدوينه ولا تأخذه بالسيئة هوادة ولا بالحسنة مصانعة خصم أو صديق . ولا أخشى ان أشبهه بالبحر ركوداً إذا لم يطب له الكلام أو الموضوع

الذى يعالج ، وبالبحر فيضاً وتدفقاً اذا طاب له الكلام أو الموضوع الذى يعالجه .

* * *

عرفته فى أواخر سنة ١٨٩٩ وقد جاء من السودان أو بالأحرى جيء به منه حيث كان ضابطاً فى الطوبجية — المدافع — بتهمة التآمر ورفاقه الضباط الثمانية عشرة مع الخديوي عباس باشا الثانى ومكاتبته سرا بعد افتتاح الخرطوم عرفته وشوق يقدمه لصاحب « الأهرام » كاتباً وشاعراً ليتولى عملاً بالاهرام ، لأن حافظاً ورفاقه أحيلوا الى الاستيداع بطلب اللورد كرومر وكيل الدولة الانكليزية وكان يطلب من الخديوى فوق ذلك اعلان استنكار عملهم والخديوى يماطل ويتردد فلما أحيلوا إلى المعاش اهتم الخديوى بأمرهم ليجدوا مرتزقهم .

وهذا ما أوصل حافظاً الى الخدمة بدار الكتب وكانت قبل هذه التسمية الحديثة تسمى المكتبة الخديوية لأن الخديوي اسماعيل أنشأها ، ومع اهتمام الخديوى عباس بامره التحق حافظ بالشيخ محمد عبده وأصدقائه كسعد زغلول باشا وقاسم أمين واللقانى وأمثاله لان حافظا لم يؤت فضيلة ضبط النفس كما قلت فاطاع نفسه الى حيث مالت مزدرياً بمنفعته . وباستطاعتى أن أقول إن أواصر الصداقة تمكنت بيننا وازدادت مع الايام تمكناً فعرفت منه خوالج نفسه واطلعت على كل بيت نظمه وسطر كتبه قبل إذاعته ونشره . وتعب الكثيرون من أصحابه فى ان يحملوه على التداوى من داء السكر فلم يفلحوا ووفقت الى ان اقنعه بالتداوى ولكنى لم اوفق إلى حمله على الاستمرار لانه كان ملولا نفوراً بطبعه .

أكتب اليوم هذه الكلمة عنه وأكاد أحس بروز شخصيته بروزاً يطبعها فى كل ذهنى كأنه ماثل امامى ، وكان يلقانى كلما وقع نظرى عليه فى أواخر أيامه بهذه الكلمة : « لقد عشنا طويلا وعمّرنا . أفلا نحسّ مثلى بدبيب الفناء وقرب الموت ؟ »

إن حافظاً أحس بدبيب الموت فى جسمه قبل أن يصل اليه ففاجأه وهو ينتظره وذهب إلى ربه بجبهة ناضرة وعين ناظرة ؟

داود برقلت

حافظ كما عرفته

لعل فى أعناق بنى أباظة واجباً كبيراً نحو الذى قال فيهم :

بنى أباظة لا زالت دياركمو أفقَ البـدور وغاباً للصـناديدِ

فقد طوّقهم حافظ بمديحه الخالد ، وقلدهم من جميل شعره الرصـين ، بما سوف يبقى على مر السنين ، وليس فينا من لا يشعر نحو شاعر مصر الـكبير بدين يتطلب الوفاء ولـكن شعوراً آخر يقعد بنا عنه هو : العجز عن حسن الاداء .

ولـكنى دعيت لتخليد ذكرى صديقى بعد أن هجرت الصحافة للفلاحة ، والطرس إلى الفأس ، لا تبرماً بالادب ، ولـكنه الملل واليأس ، وجئت اليوم متثاقلا ، بهمة متداعية فاترة ، ألقى الدلو فى الدلاء ، وأزاحم بمنكبي الادباء والشـعراء ، تلبية لداعى الوفاء.

عرفت حافظاً من ثلاثين عاماً ، يزورنا فيملأ بيوتنا بهجة ويشيع فيهـا المرح ويَصرف أبناء الأسرة وشـبابها إلى معالجة الادب والرياضـة العقلية والمفاضلة بين الشعراء وتذوق النكات اللاذعة حلوة أو مرة ، ويرجع الفضـل فى ارتباطنا به للامام الشيخ محمد عبده فقد كان صديقاً حميماً للمغفور له سـليمان باشا أباظة أحـد وزراء المعارف السابقين ، وكان الباشا أديباً كبيراً وشاعراً مجيداً . فأعجب حافظ به ، وافتتن هو بشعر حافظ وأدبه . ووجد الشاعر فى عميد أسرتنا ما يصبو مثـله له : الأدب والشعر والجاه والوفاء وكرم الاخلاق . فلم لا يتعلق به وكفى بالأدب وحده صـلة بين الرجلين تجمع بينهما وتوثق بين قلبيهما العلاقة مع امتناع المنافسة ؟!

لقد والله سمعت حافظاً غير مرة ينشد بيتاً لسليمان باشا أباظة من قصـيدة له فى رثاء أخيه المغفور له السيد باشا أباظة :

ولو أنَّ إظلام الليالى من الاسى ووقع الخطوب السود ماطلع الفجرُ

ويقول وددت لو أن لى هذا البيت من الشعر بنصف ديوانى كله .

وسمعته يردد مع شديد الاعجاب قول الباشا فى الفخر :

سيوفٌ ثباتى فى قراع الشـدائد تجردها أيدى التجـلدِ لا يدى

يقولون سالمهن إن كنت ذا نهى وعزمى يقول الحزم قمع المعاندِ

ثم مات سليمان فحمل صديقه الشاعر قيثارته يرسل من نغماتها أشجى عبارات الأسى ويبكيه بقصائد تلمس خلالها الحزن الصادق ذا اللوعة المحرقة .

هل قرأت قوله :

أنَّى حللتُ أرى عليك مآتما فلمن أوجِّه فيك حسن عزائي؟
لبنيك أم لذويك أم للكون أم للدهر أم لجماعة الجوزاء

« • »

لا تحملوه على الرقاب فقد كفى ما حملت من منّة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه يسرى به للروضة الفيحاء
تالله لو علمت به أعواده مذ لامسته لأورقت للرائي

« • »

خلقٌ كضوء البدر أو كالروض أو كالزهر أو كالخمر أو كالماء
وشمائل لو مازجت طبعَ الدجى ما بات يشكوه المحب النائي
ومناقبٌ لولا المهابة والتقى قلنا مناقب صاحب الاسراء
وعزائم كانت تفلّ عزائمَ ال احداث والايام والأعداء

« • »

شوقتنا للترب بعدك واشتهى فيه الأقامةَ واحد العذراء

« • »

وهل قرأت قوله :

أيهذا الثرى إلى مَ التمادى بعد هذا أأنت غرثانُ صادي
أنت تُروى من مدمع كل يوم وُتغذّى من هذه الأجسادِ
قد جعلت الانام زادك فى الدهـر وقد آذن الورى بالنفادِ
فالتمسْ بعده المجرة وردا وتزوّدْ من النجوم بزادِ
لست أدعوك بالتراب ولكنْ بقدود الملاح والاجيادِ

بخدود الحسان ، بالاعين النجـــــــل ، بتلك القلوب والاكبادِ
لم تلدنا حواءُ إلا لنشقى لينها عاطـل من الأولادِ
سلمتنا إلى صروف زمان ثم لم توصها بحفظ الودادِ

« • »

خبرينا جهين لا تكـذبينا ما الذى يفعل البلى بالجوادِ
كيف أمسى وكيف أصبح فيه ذلك المنعم الكثير الرمادِ ؟

« • »

رحم الله منه لفظاً شهياً كان أحلى من ردّ كيد الأعادى
رحم الله منه طرفاً تقياً ويميناً تسيل سيل الغوادى
رحم الله منه شهماً وفياً كان ملء العيون فى كل نادِ

« • »

ألهم الله فيك صبراً جميلاً كلُّ من بات ناطقاً بالضادِ
بتَّ فى حلة النعيمِ وبتنا فى ثيابٍ من الأسى والسهادِ

« • »

اتصل حافظ بسليمان باشا ثم بأبنائه وأفراد الأسرة جميعا ونشأت بينه وبينهم صداقة كانت تزداد مع الأيام رسوخاً ومتانة حتى امتنعت الكلفة وأصبح يحسب نفسه واحداً منهم ولا يحس فى بيوتهم بوحشة الاغتراب . والتفوا به يكرّمونه ويشيدون به ، ويتغنون بشعره ويشجعونه ، فكثر فيهم شعره ، وما نشر فى ديوانه منه إلا القليل ، وإذا كان لكل شاعر شيطان أو ملاك مُلهِم فان ملاك حافظ كان مشغوفاً « ببنى أباظة » يلهمه فى مديحهم المعجزات ؛ أما شيطان الدكتور طه حسين فلا يغريه إلا بالطعن والتعويض والهجاء . فهو يقول « بأن شعره فى رثاء أصدقائه « الاباظيين » متكلف لا يدل على حزن صادق ولا لوعة وانما دفع اليه بواجب المجاملة وانك تحس عند ما تقرأه كأنك تقرأ شعر طالب وضع أمامه نماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها فأخذ معانى القدماء وذهب مذهبهم فى

الغلو السقيم » ، ويشبه الدكتور تعزيته « للأباظيين » بتعزيته للانجليز فى فقد ملكتهم . . . . . .

ولست أدرى لمَ يكون الامر كذلك وقد حدثت القراء بنشأة ما كان بيننا من صلة ، ولمَ يُشبّهنا الدكتور طه بالانجليز غفر الله له وأجدادنا عرب علموا الناس الوطنية والثبات والتضحية ، ولمَ نعبد اليوم ما كنا نحرمه بالأمس ، ولا حرمنا اليوم ما كنا نعبده من دون الله ، ولا اتخذنا السياسة تجارة ؟ . . . . والسبب فى هذا كله ما وجده فى رثائه من الغلو ! فهل استكشف الدكتور شعراً عربياً له أو لغيره فى الرثاء أو المدح خالياً من المبالغة والاغراق . . . . وهل أقدم الأمثلة أم أترك القراء يبحثون ؟

أما ما يعجب به الدكتور طه ويحبذه فهو رأيٌ للأستاذ « لطفى السيد بك » فى الشاعرين الكبيرين فيقول فى كتابه حافظ وشوقى : « كنت مرة عائداً مع الاستاذ لطفى السيد بعد أن حضرنا اجتماعاً لتخليد ذكرى حافظ قبل أن يموت شوقى ، وكنا نتحدث فى أمر الشاعرين فقال لطفى بك : لقد خدعنى حافظ عن نفسه كما خدعنى شوقى عنها ! كنت ألقى حافظاً أول عهده بالشعر وكان يسمعنى كثيراً من شعره فلا يعجبنى ، فقلت له ذات يوم : أرح نفسك من هذا العناء ، فلم يخلقك الله لتكون شاعراً ! ولكنه لم يقبل نصحى وحسناً فعل ، فما زال يجدُّ ويكدح حتى أرغم الشعر على أن يذعن له وأصبح شاعراً ، وكنت شديد الاعجاب بشعر شوقى أقرؤه فى لذة تكاد تشبه الفتنة وأثنى عليه كلما لقيته ، فما زال شوقى يكسل ويقصر فى تعهد شعره حتى ساءنى ظنى بشعره الأخير ! »

وأكتفى بأن احتكم للقراء فى رأي استاذنا لطفى بك وموافقة الدكتور طه عليه . فان الاجماع يقول غير ذلك ... يقول بضعف شعر حافظ فى السنين الأخيرة من حياته ، أما شوقى فلم يدرك الضعف شعره ولا تطرق اليه الوهن وكل من قرأ قصة « مجنون ليلى » وقد أخرجها فى آخر حياته يرى فيها البرهان الساطع ، والدليل الناصع القاطع . فما تلوتها مرة الا أخذتنى هزة الطرب ونشوة العجب ، واكبرت لغة العرب ، وشعرت بأن شوقى أراد أن تنهزم كل اللغات أمام الضاد ، فتم له ما أراد !

وفى الحق لقد جعلت « مجنون ليلى » الكثيرين مثلى تكبر فى عيونهم اللغة العربية

والشعر العربى القصصى ، وكنت أقرأ لهيجو وكورنيل وراسين ولامارتين ، وأقرأ للشعراء الحديثين من الفرنسيين فتلسع فؤادى الغيرة والحسرة ، وكنت أحسب أن لغتنا تعجز عن المجاراة ، وتقف عن المباراة ، ولا تصل لما فى الفرنسية وشعرها القصصى من روعة وحلاوة وطلاوة وعذوبة ومرونة حتى قرأت « مجنون ليلى » فغيرت اعتقادى وامتلأت نفسى غبطة .

وقد حدّثت حافظاً عن « مجنون ليلى » فحبّذ وأثنى ، وكنت فى العادة اذا ما أطلقت المديح فى شعر شوقي يثور محاولاً أن يثنينى عن الثناء بنقده المر وقدرته على تخريج اللفظ وتشويه المعنى ، أما رواية « مجنون ليلى » فقد سلم معى أنها معجزة المعجزات وآية الآيات .

فليسمح لى الدكتور طه المعجب بالفيلسوف ديكارت القائل بنظرية الشك حتى يصل الى الحقيقة ، ان أشك فى اسناده هذا الرأى لاستاذنا الكبير لطفى السيد بك .

لقد كنا نعجب بشعر حافظ منذ كنا أطفالا ثم يافعين ، ونرى فيه زعيماً من كبار الزعماء الوطنيين المخلصين ، نتغنى بشعره ونفضله على سائر الشعراء لأنه كان يضرب على الوتر الحساس ، ويهيب بالشباب ويلهب العواطف ويحفز الهمم ، ويكافح اليأس والتواكل ويدعو للجهاد والامل .

وكان شوقى فى منصبه الرسمى لا يستطيع أن يخوض غمار السياسة بحرية وصراحة فانفرد حافظ يستولى على القلوب وأحرز مكانة لا تدانيها مكانة .

فأىُّ أديب لم يتغنَ بقصيده فى جميع ضروب الشعر ، وأى أديب لم يهرع إلى سماعه يتدفق فى الحفل بصوته الجهورى الممتع والقائه البديع الخلاب الذى كان يدوى بين الجماهير فيضم سحراً وفخامة جديدين الى ديباجته الساحرة الفخمة ؟

وان عهدنا بحافظ لقريب وشعره مازال عالقاً بالاذهان ، فلست أحب أن أعيد عليكم قصائده الخالدة فى البارودى ، وعثمان أباظة ، والاستاذ الامام ، وقاسم أمين ، وصبرى ، وعلى يوسف ، والمويلحى ، والاخيرة خمرية بذّ فيها أبا نواس ولم يبلغ شأوه فيها أحد :

أوشك الديكُ أن يصيح ونفسى بين همٍّ وبين ظنٍّ وحدس
يا غلام المدامُ والكاسُ والطا سُ وهيِّىء لنا مكاناً كأمس

واطلق الشمسَ من غياهب هذا الد نّ واملأ من ذلك النور كأسى
وأْذَنَ الصبح أن يلوح لعينى من سناها فذاك وقت التحسّى
وادعُ ندمان خلوتى وائتناسى وتعجّل واسبلْ ستورَ الدمقس
واسقنا يا غلامُ حتى ترانا لا نطيق الكلام الا بهمس
خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس
مذ رآها فتى العزيز مناماً وهو فى السجن بين همّ ويأس
أعقبته الخلاصَ من بعد ضيق وحبته السعودَ من بعد نحس

« • »

وقد نزع فى الجزء الثانى والثالث من ديوانه إلى الاجتماعيات فاهتز لشعره العالم العربى كله وتبوأ المكان اللائق به تحت الشمس وأخذ بعض الناس يفاضلون بينه وبين شوقى ، وتلك مرتبة لم ينلها قبله أحد .

هل قرأت « غادة اليابان » ؟

لا تلم كفى إذا السيفُ نبا صحَّ منى العزم والدهر أبى
ربّ ساع مبصر فى سعيه أخطأ التوفيق فيما طلبا

« • »

وفى « الامبراطورة أوجينى » :

أين يوم القنال يا ربة التاج ويا شمس ذلك المهرجانِ ؟
أين مجرى القنال أين مميت المال أين العزيز ذو السلطان ؟

« • »

وفى « الزوجية » :

حطمتُ اليراع فلا تعجبي وعفتُ البيانَ فلا تعتبي
فما أنتِ يا مصرُ دارَ الاديب ولا انتِ بالبلدِ الطيب

« • »

وفى « فيكتور هيجو » :

أعجميٌّ كاد يعلو نجمه فى سماء الشعر نجمَ العربى

صافح العلياء فيها والتقى بالمعرى فوق هام الشهب

« ٠ »

وفى « دنشواى » :

أيها القائمون بالامر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا
خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا اعوزتكمُ ذاتُ طوق بين تلك الرُّبَى فصيدوا العبادا

« ٠ »

أما قصائده فى تأبين الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وسامى البارودى وفى عزل السلطان عبدالحميد فقد جاوزت حدَّ الابداع وجرت مجرى المثل . فعظم خطره ، وتألق نجمه ، ووجم خصمه وأصبح شاعر النيل غير مدافَع .

وكان اذا خلونا به يحمل على شوقى وشعره ، ولكنه لا يتنازل لنقد غيره . ولا يسلم له بالامامة ولا يعترف له بالزعامة . وكان يحب كبير الشعراء خليل مطران ويخلص له وطالما سمعته يطنب فى مدحه ، ويذكر الاساتذة محرماً والكاشف ونسيماً بالخير ، ولا يذكر بالخير الكاتبين المازنى والعقاد وله فيهما وفى الدكتور طه حسين رأىٌ معروفٌ .

وكان فيما ينشره عفَّ اللسان جمَّ الأدب ، ولكنه كان هجَّاءً شديدَ القسوة على خصومه فيما لا يعدّه للنشر . هجا المرحوم سعد زغلول باشا متهماً إياه بالأنانية ومغرياً به سمو الخديوى السابق فقال :

أنا ! أنا ! منه كلَّ يومٍ لها صدًى بيننا يرنّ
أدرك أنا وهى فى صباها ان لم تقل نحن ... قال نحن !

وغضب على المرحوم السيد توفيق فقال :

وليلةٍ بتُّ بها ساهراً أجر ذيل الفحش والفجر
حتى ظننتُ وليلتى عجبٌ أنى ببيت السيد الـ ....

وحمل على شاعرين كبيرين فقال :

لى عدوّان لن يناما عنى ولو نامتْ الخطوبُ

مخنثٌ كلـه ثقوبٌ ومـدمنٌ كله عيوبُ !

وقال يسبُّ كاتباً من أكبر كتاب مصر :

أخسُّ من دبَّ على ظهرها ودبت الناسُ على ظهرهِ !

وقال يهجونى فى عقر بيتى ويمدح خادمى أحمد :

اذا جئتهم طالبا لقمةً رأيتَ مظـاهرةً قادمهْ !

ألا بارك الله فى أحمدٍ ولعنة الله على الخادمهْ !

ثم سأل ما اسم هذه الفتاة ؟ قالوا فاطمه ، قال حسن ! فليـكن البيت هكذا :

ألا بارك الله فى أحمدٍ ولعنةَ الله على فاطمهْ !

وهـكذا كنا نتمتع بحديثه الشهى ونقضى معه أياماً لن تعود غفرله الله ، وطيب ثراه ، وجعل الجنة مثواه ؟

ابراهيم دسوقى أباظه

حافظ الرجل وحافظ الشاعر

قال كارليل الفيلسوف الانجليزى العظيم فى كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال): الرجل العظيم لايزال المنقذ الوحيد لعصره من مهاوى الفناء والعدم ، وهو الشعلة الأولى التى تمتد إلى سائر المواد فتشعلها .

والاخلاص العميق البالغ البعيد المـدى الكريم فى أصله هو أول خواص الرجل العظيم سواء أكان إلـهاً أم نبياً أم شاعرا أم كاتبا أم ملـكاً ، ونحن نسمى هذا الرجل رسولا . فهو رسول أرسل الينا من العالم المجهول الغير المحدود برسالته. فلنا أن نسميه شاعراً أو نبياً أو الهاً إذ ليس هناك فرق كبير بين النبي والشاعر ، فهما فى الاصل واحد . فـكلمة Vates فى اللاتينية معناها « نبي » ومعناها « شاعر » . وكل مافى الامر ان النبي قد تناول ذلك السرّ الالـهى من الجانب الأخلاقى كالخير والشر والمحظور والمباح ، والشاعر قد تناوله من جانب الجمال . فالأول يوصى الينا بما يجب عمله ، والثانى يكشف لنا عن مواضع حبنا وسرورنا ، ولـكنهما فى حقيقتهما كمجرَيَين متداخلين لايمـكن فصل أحدهما عن الآخر .